مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 02 مارس (2021) - ص 456-465

علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم "مدخل في الماهية والأسس"

The science of verbal similarities in the Holy Qur'an: "An Introduction to Essence and Basics"

غربي بن صالح[1] ✍ كراش بن خولة[2] ✍
[1]slhgh92@gmail.com [2]kerrachebenkhaoula@gmail.com
مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
جامعة ابن خلدون - تيارت/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/30 تاريخ القبول: 2020/10/06 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص البحث

تهدف هذه الدّراسة إلى إبراز الأسس النّظرية التي تقوم عليها عملية توجيه المتشابه اللّفظي في القرآن، بغية تقييدها وبيان كيفيّات توظيفها في عملية التوجيه، كما تهدف إلى التعريف بماهية علم المتشابه اللّفظي ومعرفة أصوله ومقاصده، حتّى نُكوّن من هذا كلّه مدخلًا نظريا لهذا العلم.

وتوصّلنا إلى أن المتشابه لا يأتي لمجرّد التّغاير بل يأتي لمقصديات واضحة تتناسب مع سياق كل سورة، كما توصّلنا إلى أنّ عمليّة التوجيه تتمّ عبر مجموعة من الأسس الذّاتية والمنهجية التي بها يتم التّوجيه السّليم للآيات المتشابهات.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – المتشابه اللفظي –التوجيه - الماهية – الأسس-

ABSTRACT:

This study aims to show the theoretical foundations on which the process of directing verbal similarities is based on in the Qur'an, as it aims to introduce the essence of the science of verbal similarity, so that we can form a theoretical introduction to this science.
- And we concluded that the similarity comes for clear purposes that are appropriate to the context of each Surah, and we also concluded that the process of orientation takes place through a foundations by which the proper orientation of the similar verses is carried out.

Key words: The holy Qur'an - Verbal Similarities - Guidance - essence - Basics

[1] المؤلف المرسل : غربي بن صالح

1. مقدمة:

تأتي نظوم القرآن الكريم متباينة في معانيها وتراكيبها بحسب تباين مواضيع القرآن وتعدُّد قضاياه، إلا أنه وفي موضوعات وقصص معدودة تتشابه النظوم القرآنية في هيئة معانيها وفيما تدلّ عليه هذه المعاني، ويكون الاختلاف في أجزاء معدودة منها، إما في مفردة أو أكثر من حيث الإبدال، والهيئة، والرتبة، والذكر والحذف، والفصل والوصل.. إلخ، ونظرا لكون القرآن الكريم لا تأتي فيه الاختلافات بين النّظوم إلّا لغايات مقصودة ومناسبات معلومة، تبعا لاختلاف جو كل سورة، وما يتطلبه سياق الآيات المحيطة بها، حاول رواد هذا العلم توجيه أسباب هذه الاختلافات في النّظوم القرآنية المتشابهة، وحاولوا الإحاطة ببعض أسرارها، وقيّدوا مظاهرها، وأحصوا مواضعها، واعتمدوا في ذلك على أسس معلومة تسهم في ضبط وتوجيه هذه المتشابهات؛ إلّا أنّ هذه الأسس المعمول في التّوجيه لم يتمّ بيانها أو تقييدها أو تعريفها، رغم تحقّق الغاية منها ضمن توجيه المتشابه في القرآن الكريم.

ومن هذا الافتقار النّظري لهذه الأسس كانت دراستنا تستهدف بيان الأسس المتنوعة التي يتمّ بها توجيه المتشابهات القرآنية، إضافة للتّعريف بماهية هذا العلم ومعرفة غايته وفوائده، وكان عنوان هذه الدّراسة موسوما بـ: **علم المتشابه اللّفظي في القرآن الكريم "مدخل في الماهية والأسس"**.

وتدور إشكالية هذه الدّراسة وتساؤلاتُها حول ماهية هذا العلم وأسسِه التي ينبني عليها، وهي كالتّالي: ما هو علم المتشابه اللّفظي؟ وما هي أسسه؟ وإلى أيّ مدى تسهم هذه الأسس في توجيه المتشابه اللّفظي في القرآن الكريم؟

واعتمدنا في هذه الدّراسة على المنهج الوصفي التّحليلي مع الملاحظة والاستقراء بغية التعريف بماهية هذا العلم، والإحاطة بمنهجه، وتقصي أسسه التي ينبني عليها.

2. ما هية علم المتشابه اللفظي في القرآن الكريم:

1.2 مفهوم المتشابه اللفظي في القرآن:

أ. تعريفه:

يُعرَّف المتشابه اللفظي تعاريف متعدّدة، أهمّها تعريف ابن جرير الطّبري (ت 310هـ) الذي يرى بأنّه «ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم* عند التكرير في السور، بقَصّه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصّه باختلاف الألفاظ واتفاق المعانى»[1]، ويرى الزركشي (ت 794هـ) بأنّه «إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ويكثر في إيراد القصص والأنباء»[2]، إلّا أنّ ما يؤخذ على هذين التعريفين وما يماثلهما قصرُهما للمتشابه على القصص، والأصحّ أنّ المتشابه شامل للقصص والأحكام والمواعظ وغير ذلك، وإن كان الغالب وروده في القصص.

ومن هنا نختار تعريف أحد الباحثين الذي يرى بأنّه «الآيات المتكررة في موضوع واحد متقارب المعنى مع اختلاف في لفظها أو نظمها أو كليهما»[3]. فهذا التّعريف على وجازته محيط بفهوم المتشابه اللّفظي وشامل للمكررات كلّها سواء في القصص وغيرها.

ب. خصوصيته:

يتداخل مفهوم المتشابه اللّفظي مع المفهوم العام للتّكرار، إلّا أنّ المتشابه اللّفظي يختصّ بمزيّة الاختلاف في أحد أجزاء النّظم أو المعنى، بينما يأتي التّكرار على نفس هيئة ما تكرّر منه، فهو لا يقتضي زيادة عن الأصل، بينما يقتضي المتشابه زيادةً عنه، تقابلها زيادة في المدلولات ومناسبة للسّياقات؛ ومن هنا رأى كثير من الفقهاء والبلاغيين أنّ المتشابه اللّفظي ليس تكرارا، ومن جملة هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728هـ)*[1] ؛ وسيد قطب (ت 1385هـ)*[2]؛ وحسن عباس*[3]؛ وفي هذا يرى الزّركشي (ت 794هـ) أنه «إنما يحسن سؤال الحكمة عن التكرار إذا خرج عن الأصل أما إذا وافق الأصل فلا»[4]؛ وهذا لا يعني خلوّ التّكرار الذي لم يتغاير مع أصله من فائدة، بل إنّ لكلّ موضع تكرّر في القرآن غاية وفائدة، وإنّما يعني اختصاص المتشابه اللّفظي بمتغيرات في النّظم أو المعنى وهذا ما يترتّب عنه مقاصد معلومة ومناسبات مخصوصة لا يقتضيها التّكرار العادي.

ومن هنا نرى أنّ المتشابه اللّفظيّ ليس من جنس التّكرار، بل هو صنف مستقلّ بذاته، وله غاياته ومقاصده التي ينفرد بها عن غيره من الأفانين.

2.2 توجيه المتشابه اللّفظي:

أ. مفهوم توجيه المتشابه:

يعتبر توجيه المتشابه اللّفظي أحد فروع علم المناسبة*[1]، وهو العلم الذي يُعنى بجمع المتشابهات اللّفظية في القرآن ثمّ يبحث عن أسباب التّغايرات المختلفة في أنماط هذه المتشابهات، فهو "يقوم على توجيه ما تشابه من آي الذّكر الحكيم بالنّظر إلى محالّ الاختلاف فيها ايجازا واطنابا، أو تقديما وتقديرا، أو ذكرا وحذفا أو تعريفا وتنكيرا، أو إبدال لفظ بآخر ونحو ذلك"*[2]، وتهدف العملية التوجيهية إلى إدراك حِكَم التغايُر بين النظوم القرآنية المتشابه بالنظر إلى سياقاتها المتعدّدة وفهم مدلولاتها، وهذا ما يترتّب عنه إثبات مناسبة القرآن الكريم ونفيُ العبثيّة عنه، ودرأ وَهْم تعارض الآيات التي تخالفت نظومها وبيان وجه تكاملها، ومثال هذا كخلق آدم من "تراب" في بعض الآيات، ومن طين في غيرها، ومن حمأ مسنون، ومن صلصال، فإنّ هذا التّباين لا يعدو أن يكون "ذكرا للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح"[5]؛ أو يكون على سبيل التّفريع عنه لكونه أصلا منه، «لأن الصلصال غير الحمأ والحمأ غير التراب إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال»[6]. فانظر كيف يبيّن التّوجيه وجه التّناسب بين الآيات التي تغايرت نظومها، حتى تكون هذه المتغايرات وحدة واحدة تتكامل فيما بينها بلا تعارض ولا اختلاف.

ب. هل يمكن أن يكون التشابه اللفظي لإفادة التنويع وحده؟

زعم الزمخشري (ت 538هـ) في تأويله لبعض المتشابه أن وروده إنّما هو لتجنب التكرار وتحصيل التنويع، وذلك في تكرّر إنظار إبليس إلى يوم القيامة بصيغ مختلفة، فقال الزّمخشري: «و(يَوْمِ الدِّينِ) و(يَوْمِ يُبْعَثُونَ) و(يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ) في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة»[7]. وهذا لا يمكن التسليم به فلكل متشابه تأويل يخرج عن مجرد التنويع وحده، وما من موضع تشابه ولا اختلاف في القرآن إلّا وله مقصد معلوم*، وعلى هذا الأساس وجّه أحد الباحثين هذا التّنوّع بين الآيات لمقاصد يقتضيها سياق كل سورة حيث يقول: «وقد نلحظ فروقا بين الكلمات الثلاث المضافة إلى اليوم فإن "يوم الدين" يشير إلى ما يلاقيه إبليس من الجزاء على معصيته وتمرده، وهذه الإشارة لا تجدها في الكلمتين الأخيرتين وإنما نراها في كلمة "الدين"، و"يوم يبعثون" يشير إلى طلب أقصى المدة فابليس يطلب الإنظار إلى يوم البعث لا إلى يوم تقوم الساعة، و"يوم الوقت المعلوم" فيه نبرة تهديد لا تخطئها الأذن أي إلى يوم الوقت الذي تعرف ما فيه من العذاب والأخذ الشديد. فإذا كانت الكلمات الثلاث تشترك في المدلول العام فإن لكل كلمة خصوصية في الدلالة لاءمت موقعها»[8].

وعلى هذا فإنّ التشابه اللفظي لا يأتي لإفادة التنويع وحده، بل يأتي مكمّلا لما تشابه معه، إضافة لملاءمة كل من المتشابهات لسياقه، بحيث لا يؤدّي مشابِهُه ما يؤدّيه هو ضمن موضعه، ولكلّ مقام مقال.

3. الأسس التي يقوم عليها توجيه المتشابه:

لا يمكن توجيه المتشابه اللّفظي في القرآن توجيها دقيقا إلّا إذا تمّ استيفاء جملة من الأسس التي يمكن عزوُها إلى عاملين مهمّين هما: الأسس الذّاتية، والأسس المنهجيّة؛ وتفصيلهما كالتّالي:

1.3 الأسس الذّاتية:

ونقصد بالأسس الذّاتية ما يرجع إلى الموجّه من حيث توفّرُه على شروط معلومة تُخوّله لخوض هذا العلم، أهمّها:

أ. المعرفة الجيّدة بالقرآن الكريم: واعتماد توجيه المتشابه على المعرفة بالقرآن الكريم راجع لكون هذا العلم، إنما هو متفرّع عن الدّراسات القرآنية في جانبها التّفسيري، لذا يشترط فيه حفظ القرآن الكريم والمعرفة الجيّدة به*[(1)]، لأنّ معرفة أصول الاختلاف بين الآيات المتشابهة لا يمكن الإحاطة بها إلا من خلال دَرْك سياقات القرآن المتعدّدة، ولا يمكن أن يتم ذلك إلّا بحفظ القرآن الكريم.

ب. المعرفة الجيّدة باللّغة العربية: حيث يعتبر علم المتشابه اللّفظي أحد فروع علم اللّغة في جانبها البلاغيّ، ولا يمكن الخوض في توجيه المتشابهات دون الإحاطة بلغة العرب إحاطة عامّة، والإحاطة بعلومها على وجه التّخصيص، وأهمّ هذه العلوم: علم البلاغة بجانبَيْه، علم المعاني وعلم

البيان*(2)؛ وعلم النّحو والصّرف، إضافة إلى علم المفردات وما يلحق بها من مدلولات وتراكيب*(3)، فإنّ المعرفة بهذه العلوم اللّغوية ضرورة حتميّة لا تتمّ عمليّة التّوجيه إلّا بها.

ج- علم الموهبة –دقّة الفهم-*(4): والموهبة هي المقدرة الشّخصية التي تمكّن الفرد من إدراك العلاقات المنطقيّة وفهم مظاهر الارتباط بين الآيات المختلفة ووجه التّشابه والتناسب بينها*(5)، وهي تعتبر أصلا من أصول عملية التوجيه، لما تحتاجه هذه العملية من تدقيق وتحقيق وفطانة، ولا يقدر على ذلك إلّا من آتاه الله فهما وموهبة.

2.3 الأسس المنهجية لعمليّة التّوجيه:

بعد تحصيل المعارف والمدارك الذّاتية التي تهيّء الموجّه لعملية التّوجيه، تتمّ منهجية توجيه المتشابه اللّفظي في القرآن عبر مجموعة من المراحل يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ. مرحلة إدراك التّمايز: وتتمثّل في جمع الآيات المتشابهة، ثم ملاحظة الفروق اللّفظيّة والمعنوية والدّلالية بينها، ويمكن أن يُدرك التّمايز بين نظوم الآيات المتشابهة بالنّظر إلى ثلاثة مواضع، وهي كالتالي:[9]

- النظر في المفردات: ويكون ذلك بالنظر في ملائمة الكلمة لموقعها ومدى ملاءمة كل نوع من الألفاظ موضعه معجما وصرفا وهيئة.

- النظر في صوغ الجملة ودلالات اختلاف الصوغ فيها: بحيث لا تستبين دلالات المفرد إلا من خلال هذه الصياغة.

- النظر في الجمل: وذلك بمعرفة وجوه التمايز وبيان الفروق اللفظية والمعنوية في الآيات*(1)

ومن خلال النّظر فيما ذكرناه، يتمّ استنباط وجوه الاختلاف بين الآيات المتشابهة، ومعرفةُ الفروق الدّلالية واللّفظيّة والمعنوية بينها، ويمثّل هذا مرحلة تمهيديّة لعمليّة التّوجيه.

ب. مرحلة الإحاطة بالسّياق: وهي أهمّ مرحلة في عمليّة التّوجيه، ويتمثّل في معرفة وجه التّناسب للسّياق ضمن عمليّات التّغاير المحصّل عليها بين كل آية وآية، ويتم ذلك بالنّظر إلى سياق السورة، وسياق القرآن ككل، وسياق النزول.

- سياق السورة: ويمثّل سياق السّورة أحد أهمّ معايير التّوجيه، فإنّ كلّ سورة تقتضي نسقا وسيّاقا خاصّين بها تتلاءم معهما مواضيعُها وقصَصُها، ويرى المفسّرون وعلماء التّوجيه أنّ غالب التّغاير في المتشابهات إنّما يأتي لمراعاة السّياق والنّسق المُعتبرين في كلّ سورة من سور القرآن، لأنّ كلّ سورة تقتضي قدرا من اللّفظ تتحدّد عليه الصورة التي تأتي عليها قصّتها*(2)، وعلى هذا فإنّ توجيه المتشابه يتمّ بناءً على سياق كلّ سورة ومقتضياتها، فيتمّ ردّ المتشابه إلى سورته -بعد معرفة التّمايز بينه وبين غيره- ويُنظر إليها كلّها في أسلوبها وهيئتها ومقاصدها ومضمونها، بغية معرفة وجوه المطابقة بين السّورة وتلك الهيئة المتفرّدة من النظم التي وردت فيها.

- سياق القرآن: ويكون ذلك بالاعتماد على سور تناولت نفس القصّة أو نفس الموضوع، لأن القرآن الكريم لا يمكن تأويله دون اعتماد بعضه على بعض فهو لا يتناقض بين مضامينه، وكل منها يكمّل الآخر، ويدخل ضمن هذا "**علم القصص، لأن معرفة القصة تفصيلاً يعين على توضيح ما أجمل منها في القرآن**"[10].

من أجل هذا وجب الاعتماد في توجيه المتشابه على كل الآيات التي تتلاقى مع موضوع الآيةِ المرادِ توجيهُها حتّى تُعرف أسباب التّغايرات بين الآيات المتشابهة، ويكثر الاعتماد على هذا النّوع أثناء توجيه المتشابهات التي لا تكون من قصّة واحدة أو موضوع واحد*، فإن كلّ واحد منها يعتمد على سياق قصّته قدر اعتماده على سياق سورته.

- أسباب النزول: ويتمثّل دورها في تجلية المبهمات وإيضاح المناسبات في سياقات الآيات والسور، "ولا يمكن تفسير الآيات دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، لأنّ بها يزول الإبهام ويرفع الإشكال ويفكّ الخلاف"[11]، ودورها في علم المتشابه يكمن في كون الآيات تنزل مراعاة لأسباب مختلفة وإن اشتبهت نظومها، وبعض هذه الأسباب تقتضي نظما خاصّا بها، فما نزل في الكفار يختلف عما نزل في أهل الإيمان وما نزل في مكة يختلف عما نزل في المدينة.. ومنه فإنّ معرفة الأسباب التي نزلت فيها الآيات يؤدّي إلى معرفة أسباب تخالف نظومها.

* وهذه الثلاثة هي التي تجسّد السّياق الذي يتمّ على أساسه توجيه المتشابه، وأكثرها اعتمادا سياق السّورة فهو الأهمّ، ثم سياق القرآن كلّه، ثم سياق النّزول؛ وبالجميع يتم التّوجيه.

ج. مرحلة التّوجيه: وهي المرحلة التي يتمّ فيها تنقيح الأسباب الدّاعية للتّغايرات بناءً على مراعاة السّياقات المذكورة، ويتم فيها ترجيح الآراء وبيان الصّواب والأصوب منه، وتتمّ هذه العمليّة بناءً على مقادير دقيقة يصحبها طول نظر وشدّة إمعان ودقّة ورويّة*؛ وبهذا يتمّ التّوجيه السّليم للآيات المتشابهات.

4. أنموذج تطبيقي عن أسس التّوجيه:

جاء في آيتي سورة الأعراف، من قوله تعالى في قصة صالح عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف: 79)، وقال في قصة شعيب عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: 93)؛ فالآيتان تتشابهان في نظمهما تشابُها ملحوظا، ويمكن اتّباع الخطوات المنهجية السابقة من أجل توجيه الآيتين كما يلي:

1.4 إدراك التّمايز:

يتمّ النّظر أوّلا إلى كلتا الآيتين بغية معرفة محلّ الاختلاف؛ فيتمّ تحديده لا بالنّظر إلى مستويات الاختلاف كلّها في الآيتين، بل بتخصيص الجزء الذي تتشابه مركّباته تشابها ملحوظا، فنجد أنّ الاختلاف وقع في صيغة الإفراد والجمع، ففي قصة صالح عليه السلام جاءت ﴿**رِسَالَةَ**﴾ بالإفراد:

﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، وفي قصة شعيب عليه السلام جاءت بالجمع: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، كما وقع الاختلاف كذلك في خواتم الآيتين، والذي نختاره هنا هو الاختلاف في الإفراد والجمع.

وبعد تحديد الاختلاف ننظر إلى التّمايز بين الآيتين من ناحية مدلولهما ومن ناحية شكلهما: فنجد أنّ المدلولات لم تتغاير إلّا بما تغايرت به صيغتهُما، وما تغايرت به خاتمة كلّ آية منهما؛ ومن النّاحية الشّكلية نجد أنّ فاصلتيهما تنتهيان بالياء والنون، فهما متطابقتان؛ وإلى هنا تمّ تحديد وجوه التّمايز بين الآيتين.

2.4 الإحاطة بالسّياق:

ويتمّ النّظر إلى سياق السّورة، وسياق الموضوع الذي يستند على الآيات التي تناولت نفس الموضوع في القرآن الكريم؛ فإذا وُجد معهما سياق النّزول وجب الاعتماد عليه، وإن لم يوجد فلا حاجة لذلك.

وفي هذا الشّأن نظر ابن الزّبير الغرناطي إلى سياق القصّتين، فرأى أنّ قصّة شعيب جاءت في جملة من الأوامر والنواهي والتّذكيرات "فقال لهم بعد أمرهم بتوحيد الله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا(85)﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا..(86)﴾ وذكرهم بتكثيرهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ..(86)﴾؛ كما جاء في السّياق تعنُّتهم واستكبارهم، فقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا..(88)﴾، وقالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (90)﴾، فرأي ابن الزّبير أنّ هذا سياق إطناب"[12].

وأمّا قصّة صالح فليس السّياق فيها سياق إطناب وليس فيها تفصيل بمثل تفصيل قصّة شعيب، «فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة وأمرهم برعيها وتذكيرهم بقوم هود في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ.. (74)﴾ ولم تنفصل مكالمته إياهم كتفصيل ما تقدم»[13]، فغالب سياق القصّة يدور حول النّاقة وحدها، وإهلاكهم إنّما وقع من أجلها.

وأمّا سياق القرآن الكريم فيمكن الرّجوع إلى الآيات التي تناولت هذا الموضوع أو طرفًا منه، فننظر مثلا إلى سياق سورة هود التي تناولت القّصتين، قصّة صالح من الآية 61 إلى 66، وقصّة شعيب من الآية 84 إلى 95؛ فنجد نفس التفصيل في قصّة شعيب، ونفس الحديث عن الناقة في قصّة صالح واقتصاره عليها، كما اقتصر عليها في سياق سورة الشّمس.

3.4 التّوجيه:

ويتمّ هنا قيّاس وجه الملاءمة بين الهيئة الواردة في المتشابه وبين السّياق؛ ويكمن ذلك التّلاؤم "في كون قصّة شعيب جاءت على الإطناب والتّكثير ، فكان جمع الصّيغة ﴿رِسَالَاتِ﴾ أنسب للإطناب والكثرة، وأمّا قصّة صالح التي تم الاقتصار فيها على ذكر النّاقة دون تفصيل لغيرها فكان الإفراد ﴿رِسَالَةَ﴾ أنسب لها"[14]؛ فيكون التّكثير أنسب للجمع، والتقليل أنسب للأفراد، ثمّ إنّ توحّد الرّسالة في قصّة

صالح أنسب لتوحّد الذّنب في سورة الشّمس ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الشمس: 14)، فكان إهلاكهم نظيرا للآية التي رأوها وكذّبوا بها، لكون الآية موجبة لهلاك جاحدها، يقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: 59): **وأمّا قوم شعيب فلم يكن هلاكهم بسبب آية رأوها وإنما لإعراضهم واستكبارهم عن جملة ما أُمرو به ونهوا عنه**، فخاطب القرآن كُلًّا بما يليق به وجعل لكلٍّ مقامٍ مقالا.

ونشير إلى كون التّوجيه هنا توجيها دلاليّا، يستغني عن الجوانب الشّكلية التي قد يقع التّوجيه بها في بعض الآيات؛ وإلى هنا تنتهي عملية التّوجيه.

5. خاتمة:

تعتبر هذه الدّراسة مدخلا نظريا لعلم المتشابه اللّفظي في القرآن الكريم، أوضحنا خلالها ماهية هذا العلم فعرّفناه وبيّنا خصائصه ومقاصده، كما أوضحنا أهم الأسس التي ينبني عليها هذا العلم الجليل؛ وتوصّلنا من خلال هذه الدّراسة إلى جملة من النتائج نلخّصها فيما يلي:

- يتمثّل المتشابه اللّفظيّ في القرآن في كلّ ما تكررّ معناه وتغاير لفظه ضمن سياق القرآن الكريم.

- لا يعتبر المتشابه اللّفظي تكرارا، لكون الأخير لا يقتضي زيادة عن المعنى الأصيل، بينما يقتضي المتشابه زيادة عليه، وتأتي هذه المتشابهات على قدر كلّ سورة وما يقتضيه سياقها ونسقها.

- لا يأتي المتشابه اللّفظي لمجرّد التّنويع وتجنّب التّكرار، بل يأتي لمقاصد واضحة ومناسبات مخصوصة، يقتضيها سياق كل سورة أو قصّة، ولا يمكن لغير تلك الهيئة المخصوصة الواردة في كلّ موضع من مواضع الاختلاف أن يؤدّي ما تؤدّيه هي ضمن موضعها الذي وردت فيه.

- تتمثّل عملية توجيه المتشابه اللّفظي في محاولة إدراك أسباب تغايرات النّظوم المتشابهة، ومعرفة أسرارها ومناسباتها، ضمن السّياق الذي وردت فيه.

- يقوم توجيه المتشابه على مجموعة من الأسس الذّاتية والمنهجية التي يجب استيفاؤها كلّها حتّى تكتمل عمليّة التوجيه.

الهوامش:

---

* أي قصص الأنبياء.

[1] الطبري، ابن جرير (ت: 310هـ)، (1420هـ/ 2000م)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، (ط: 1)، ج178/6، وهذا ضمن حديث ابن جرير عن المحكم والمتشابه.

[2] الزركشي، بدر الدين (ت: 794هـ)، (1376هـ/1957م)، البرهان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية/ عيسى البابى الحلبي وشركائه- القاهرة، (ط: 1)، ج112/1.

[3] الشتوي، فهد، (1426هـ/ 2005م)، دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، (رسالة ماجستير)، إشراف: محمد بن عمر بازمول، قسم الكتاب والسّنة/ كليّة الدعوة وأصول الدين/ جامعة أم القرى، السعودية، ص100.

*[(1)] ينظر: الحراني، ابن تيمية (ت: 728هـ)، (1416هـ/ 1995م)، مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية، ج19/167-186.

*[(2)] ينظر: قطب، سيد (ت: 1385هـ)، (1412 هـ)، في ظلال القرآن، دار الشروق – بيروت/ القاهرة، (ط: 17) ، ج1/55.

*[(3)] عباس، فضل، (1430هـ/ 2010م)، قصص القرآن الكريم، دار النفائس – الأردن، ط: 3، ص71.

[4] الزركشي، البرهان، ج3/10-11؛ ونشير إلى كون الزّركشي ممّن يرون بتسميته تكرارا، وقدر عرض حسن عباس لرأيه وبين الصواب منه، ينظر: قصص القرآن، ص71.

*[(1)] ينظر: البقاعي، إبراهيم بن أبي بكر (ت: 885هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، ج1/14.

*[(2)] وللاطّلاع على تعاريف مشابهة لهذا التّعريف ينظر: الإسكافي، الخطيب (ت: 420هـ)، (1422هـ/2001م)، درة التنزيل وغرة التأويل، المحقق: محمد مصطفى آيدين، جامعة أم القرى- السعودية، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها (30) معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، (ط: 1)، ج1/136- مقدمة المحقّق-و ج1/217-218-219، وملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية- بيروت، ص7-8.

[5] ينظر: الماتريدي، أبو منصور (ت: 333هـ)، (1426هـ/ 2005م)، تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): المحقق: مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، (ط: 1)، ج1/193 -مقدمة المحقق-.

[6] الزركشي، البرهان، ج2/54-55.

[7] الزمخشري، جار الله (ت: 538هـ)، (1407هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي– بيروت، ط: 3، ج2/258.

* ينظر: الغرناطي، ملاك التأويل، ص7-8.

[8] حسنين، أبو موسى محمد، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، دار الفكر العربي- القاهرة، ص224.

*[(1)] ذكر ابن الأثير وجوب حفظ القرآن الكريم على المفسّر، ينظر: ابن الأثير، ضياء الدين (ت: 637هـ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، المحقق: أحمد الحوفي/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- الفجالة بالقاهرة ج1/40، وذكر فاروق النبهان أن المعرفة الجيدة بالقرآن معينة على إدراك ترابط القرآن وتناسبه، ينظر: النبهان، فاروق، (1426هـ/ 2005م)، المدخل إلى علوم القرآن الكريم، دار عالم القرآن – حلب، (ط: 1)، ص142.

*[(2)] وقد أكّد على هذا الشّرط صاحب الكشّاف، ينظر: الزمخشري، الكشاف، ج1/2 المقدمة.

*(3) ولمزيد من التّفصيل حول هذه العلوم وأدوارها في العملية التّفسيريّة والتأويلية ينظر: الأندلسي، أبو حيان (ت: 745هـ)، (1420 هـ)، البحر المحيط، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ج1/14-15-16، وا بن الأثير، المثل السائر، ج1/40.

*(4) وذكر هذا الرّاغب في تفسيره وتبعه المفسّرون من بعده، ينظر: الأصفهانى، الراغب (ت 502هـ)، (4201هـ/ 1999م)، تفسير الراغب الأصفهاني، الجزء الأول: المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق: محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب- جامعة طنطا، ط: 1، ج1/39.

*(5) وقد ذكر فاروق النبهان أنها شرط من شروط علم المناسبة، ينظر: المدخل إلى علوم القرآن الكريم، ص142.

9 ينظر: فهد بن شتوي، دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى عليه السلام، ص131إلى 134.

*(1) ومحالُّ النظر الثلاثة هذه التي ذكرها صاحب الرّسالة لم يذكر أنّها لإدراك التّمايز بين الآيات، بل قال إن عمليّة التّوجيه تتمّ بها، إلا أنها ناقصة عن إدراك ذلك ولا تعدو أن تكون تمهيدا أوّليا لعملية التوجيه على ما ذكرناه.

*(2) وقد ذكر هذا كل من البقاعي وسيد قطب والسّامرّائي، وللاطّلاع على أقوالهم، ينظر: نظم الدرر: البقاعي، ج1/14، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ج1/55، والسامرائي، صالح، (1998هـ)، التعبير القرآني (دراسات بيانية في الأسلوب القرآني "1")، دار عمار– عمان، ص237.

10 الذهبي، محمد حسين (ت: 1398هـ)،التفسير والمفسرون: مكتبة وهبة- القاهرة، ج1/191.

* كمثل بعض التشابه الواقع بين قصّة صالح وقصّة شعيب، فالقصتان مختلفتان رغم تشابه نظمهما.

11 ينظر الواحدي، ابن علي (ت: 468هـ)، (1412هـ/ 1992م)، أسباب نزول القرآن، المحقق: عصام الحميدان، دار الإصلاح- الدمام، (ط: 2)، ص8.

* وقد ذكر الإسكافي أنّه كان يوجّه المتشابه مصحوبا بنظر وروية، ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، ج1/217.

12 ينظر: الغرناطي، ملاك التأويل، ص202-203.

13 المصدر نفسه: ص203، وينظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج2/623.

14 ينظر: الغراناطي،ملاك التأويل، ص202-203، وينظر: الإسكافي، درة التنزيل، ج2/623- 624- 625.